

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

عِبَادَ اللَّهِ: لَقَدْ مَيَّزَ اللَّهُ ﷻ الْإِنْسَانَ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ بِنِعْمَةِ الْعَقْلِ، وَالَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَيِّزَ بِهِ بَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِّ، وَالْمُصْلِحَةِ وَالْمُفْسِدَةِ، وَيُدْرِكَ بِهِ التَّكَالِيفَ الشَّرْعِيَّةَ، وَيَتَدَبَّرَ بِهِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ، وَيَفْهَمَ بِهِ الْأَحَادِيثَ النَّبَوِيَّةَ، وَيَجْتَهِدَ بِهِ فِي أُمُورِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ؛ فَهُوَ وَاسِطَةٌ لَا غِنَى لِلْإِنْسَانِ عَنْهَا فِي إِدْرَاكِ أُمُورِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

- لَقَدْ اهْتَمَّ الْإِسْلَامُ بِالْعَقْلِ، وَأَعْلَى مَنْزِلَتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ مِنْ أَبْرَزِ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ الْإِنْسَانَ عَلَى سَائِرِ مَخْلُوقَاتِهِ الْعَقْلُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الدَّلَائِلَ عَلَى عِنَايَةِ الْإِسْلَامِ بِالْعَقْلِ كَثِيرَةٌ، وَمِنْ ذَلِكَ:

الْأَوَّلُ: إِنَّ الْعَقْلَ أَحَدُ الضَّرُورَاتِ الْخَمْسِ الْكُبْرَى الَّتِي يَجِبُ الْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا، وَحَرَّمَ كُلَّ مَا يَضُرُّ بِالْعَقْلِ وَيُعْيِبُهُ، كَالْخُمُورِ وَالْمُسْكِرَاتِ وَالْمُفْتَرَّاتِ، وَشَرَعَ الْعُقُوبَاتِ الرَّادِعَةَ لِمَنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ؛ حِفَظًا عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ.

الثَّانِي: الْإِسْلَامُ دَعَا الْعَقْلَ إِلَى اتِّبَاعِ الْبُرْهَانِ، وَأَمَرَ بِبِنْدِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى، وَالْكَبْرِ وَالتَّعَصُّبِ، وَالتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، وَالْجَدَلِ بِالْبَاطِلِ، وَالْخُرَافَاتِ وَالْأَوْهَامِ، وَالسَّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ وَالِدَّجَلِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَفَاتِ كُلَّهَا تُعْطِلُ الْعَقْلَ عَنْ وَظِيفَتِهِ؛ فَيَتَمَسَّكُ بِصَاحِبِهِ بِالْخَطِئِ وَلَوْ ظَهَرَ عَوَارِئُهُ، وَيَعْرِضُ عَنِ الصَّوَابِ وَلَوْ اسْتَبَانَ أَنْوَارُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

الثَّلَاثُ: الْإِسْلَامُ دَعَا الْعَقْلَ إِلَى التَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ، سِوَاءِ كَانِ التَّفَكُّرُ فِي نِصُوصِ الشَّرْعِ بِحُسْنِ فَهْمِهَا

وَالْعَمَلِ بِهَا، أَوْ التَّفَكُّرِ فِي مَجَالَاتِ الْكَوْنِ الْفَسِيحِ، وَمَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَالْقُرْآنُ مَلِيٌّ بِالْآيَاتِ الدَّاعِيَةِ إِلَى النَّظَرِ فِي سُنَنِ الْكَوْنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وَعِنْدَمَا نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. كَانَ فِي حَالٍ عَجِيبَةٍ مِنَ التَّأَثُّرِ، أَخْرَجَ ابْنُ حِبَّانٍ فِي «صَحِيحِهِ»، وَحَسَنَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَوَارِدِ الظُّمَانِ»، عَنْ عَطَاءٍ قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: قَدْ أَنْ لَكَ أَنْ تَزُورَنَا، فَقَالَ: أَقُولُ يَا أُمَّهُ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: زُرْ غِبًّا تَزِدُّ حُبًّا، فَقَالَتْ: دَعُونَا مِنْ رَطَانَتِكُمْ هَذِهِ، قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَكَتَتْ، ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «يَا عَائِشَةُ: ذَرِينِي أَتَعْبُدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي» قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ لِحِيَّتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَةً، وَيَلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا﴾ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ ﴿الْآيَةُ كُلُّهَا.

وَقَدْ عَابَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يُعْطَلُونَ عُقُولَهُمْ عَنْ وَظَائِفِهَا، وَلَا يُسَخَّرُونَهَا فِي التَّفَكُّرِ، سَوَاءٌ فِي آيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، أَوْ فِي آيَاتِهِ الْكُونِيَّةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

الرَّابِعُ: الْقُرْآنُ حَافِلٌ بِالْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ الدَّامِغَةِ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَإِثْبَاتِ الْمَعَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾. فَهَذَا بُرْهَانٌ عَقْلِيٌّ قَاطِعٌ، فَإِنَّمَا أَنْ

يُكُونُوا خُلُقُوا مِنَ الْعَدَمِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَدَمَ لَا يَخْلُقُ شَيْئًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يَخْلُقُوا أَنْفُسَهُمْ، فَلَا يَبْقَى إِلَّا أَنْ لَهُمْ خَالِقًا، هُوَ اللَّهُ تَعَالَى.

الخامس: الإسلام دعا إلى تنمية العقول بالحث على التعلم والاستزادة منه؛ لأن العلم زاد العقول، والنصوص الشرعية حافلة بالحث على طلب العلم، وبيان كثرة فضائله ومزاياه، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

السادس: الدين تعامل مع العقل تعاملًا واقعيًا، فاعترف بقصوره، وحث على تكميله؛ ولهذا جاء الحث على الشورى، والنصح بين الناس، بل وأرسل الله الرسل وأنزل الكتب لهدايتهم إلى تفاصيل ما لا تهتدي إليه العقول.

فيا للعجب من ظهور شذوذة من الناس تدعو إلى إعمال العقل في أمور الدين والدنيا، وترك نصوص الشرع من الكتاب والسنة، مع أنه لا تعارض بين صريح النقل وصريح العقل، لكنهم أرادوا من هذا العقل الذي يغفل وينسى، ويضعف ويسهو أن يحيط بجميع أمور الإنسان، وأن يكون له الكلمة الفصل في أمور الدين والدنيا، والغيبات وغير ذلك؛ فقاد ذلك البعض إلى ترك النصوص الشرعية بحجة أنها لا تتوافق مع العقل حسب زعمهم. قال العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «بدائع الفوائد»: لا ريب أن البصر يعرض له الغلط، ورؤية بعض الأشياء بخلاف ما هي عليه، ويتخيل ما لا وجود له في الخارج، فإذا حكم عليه العقل تبين غلطه.

عباد الله: ومع تكريم الإسلام للعقل واهتمامه به وصيانته له، إلا أنه حد للعقل حدودًا، هي كل ما

يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوْعِبَهُ وَيَفْهَمَهُ حَسَبَ قُدْرَتِهِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عز وجل: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يَزَالُونَ يَقُولُونَ: مَا كَذَا؟ مَا كَذَا؟ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟».

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. صَرَفَ الْجَوَابَ عَنْ مَا هِيَ تَهَا؛ حَتَّى لَا يَتِيَهُ الْعَقْلُ فِيمَا لَيْسَ يُدْرِكُهُ، وَلَيْسَ مِنْ طَاقَتِهِ، وَهَذَا لَا شَكَّ تَكْرِيمٌ وَأَيُّ تَكْرِيمٍ لِعَقْلِ الْإِنْسَانِ؛ وَلِذَا كَانَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم لَا يَخُوضُونَ فِيمَا لَا يَسْتَطِيعُونَ دَرْكَهُ وَمَعْرِفَتَهُ، أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُصَنَّفِهِ»، عَنْ أَنَسِ رضي الله عنه، أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿وَفَاكِهَةٌ وَأَبَا﴾، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ الْفَاكِهَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا الْأَبُ؟»، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكَلُّفُ يَا عُمَرُ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ كَثُرَتْ أَقْوَالُ الْأَئِمَّةِ فِي وُجُوبِ اتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَتَرْكِ أَقْوَالِهِمُ الْمُخَالَفَةَ لَهَا، وَمِنْ ذَلِكَ:

- قَالَ الْعَلَامَةُ الْفُلَانِيُّ رحمته الله فِي كِتَابِهِ: «إِقَاطِ هِمَمِ أَوْلِي الْأَبْصَارِ لِلِإِقْتِدَاءِ بِسَيِّدِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ» قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رحمته الله: إِذَا قُلْتُ قَوْلًا يُخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَبَرَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم فَاتْرُكُوا قَوْلِي.

- وَأَخْرَجَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رحمته الله فِي كِتَابِهِ «جَامِعَ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ»: عَنْ مَعْنِ بْنِ عَيْسَى قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ رحمته الله يَقُولُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أُخْطِئُ وَأُصِيبُ، فَانظُرُوا فِي رَأْيِي، فَكَلِّمًا وَافِقَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَخُذُوا بِهِ، وَكَلِّمًا لَمْ يُوَافِقِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَاتْرُكُوهُ.

- وَذَكَرَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رحمته الله فِي «الْمَجْمُوعِ»: عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رحمته الله أَنَّهُ قَالَ: إِذَا وَجَدْتُمْ فِي كِتَابِي خِلَافَ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقُولُوا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَدَعُوا قَوْلِي.

- وَذَكَرَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمته الله فِي «إِعْلَامِ الْمُوقِّعِينَ» عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رحمته الله أَنَّهُ قَالَ: لَا تُقَلِّدْنِي، وَلَا تُقَلِّدْ مَالِكًا، وَلَا الثَّوْرِيَّ، وَلَا الْأَوْزَاعِيَّ، وَخُذْ مِنْ حَيْثُ أَخَذُوا.

- وَذَكَرَ ابْنُ عَابِدِينَ رحمته الله فِي «حَاشِيَتِهِ»، عَنْ كُلِّ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَهُوَ مَذْهَبِي.